الدرس (5): جذور الثّورة الإسلاميّة وبيئة انطلاقها

مفهوم الثورة الإسلامية في فكر الإمام الخامنئي

(دورة التعرّف على المنظومة الفكرية لسماحة الإمام الخامنئي)

الدرس (5): جذور الثّورة الإسلاميّة وبيئة انطلاقها

الأستاذ: سماحة السيد كميل باقر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

أيّها الأعزّة، أيّها الكرام، السلام عليكم ورحمة ا تعالى وبركاته.

نتابع معكم في هذه السلسلة من الدروس والمحاضرات دراسة مفهوم الثورة الإسلامية من منظار سماحة الإمام الخامنئي دام ظلّه ضمن الدورة العامة التي يقيمها معهد الثورة الإسلامية.

في الجلسات السابقة أشرنا إلى مبادئ الثورة وأهدافها ومراحلها، وفي هذه الجلسة سندرس جذور الثورة وبيئة انطلاقها، إن شاء ا.

بشكل عام، بيئة انطلاق الثورات الدينية الأصيلة تشبه بيئة ظهور النبوّات وبعثة الأنبياء عليهم السلام، لأنّ العصر الذي يسبق الثورة هو في الحقيقة عر جاهلية، وتأتي الثورة في بيئة اجتماعية مماثلة للبيئة والظروف الاجتماعية التي يُرسل فيها الأنبياء من حيث المعالم والمؤشرات. لذلك يقول ساحة القائد في كتاب «ثورة الأنبياء » في شرحه لإحدى خطب الإمام أمير المؤمنين عي عليه السلام حول ظروف المجتمع قُبيل بعثة الرسول الأعظم صلّى ا عليه وآله وسلّم، يقول ساحته: «عندما كنت أترجم وأشرح هذه الخطبة قبل انتصار الثورة كانت كلّ كلمة أكتبها تنبع من الوجدان والمشاعر، إذ كانت تحكي بالضبط ما كنّا نلمسه ونعانيه. وكان كلّ ما ورد فى هذه الخطبة من كلام حول بيئة ظهور الأنبياء عليهم السلام ينطبق خطوة بخطوة وكلمة بكلمة على الأيام التي كنّا نعيشها آنذاك. »

الميزة البارزة في فترة ظهور النبوّات هي حاكمية الطاغوت في المجتمع. وحاكمية الطاغوت على المجتمع تعني تسلّطه على جميع طاقات المجتمع البنّاءة والخلّقة،)وبالتالي(انجرار المجتمع وقواه واستعداداته نحو أهداف الشيطان وتأمين مصالح الطاغوت. المجتمع الذي يحكمه الطاغوت يعيش حالة العبودية للشيطان. وحاكمية الطاغوت في الحقيقة منشأ لجميع المشاكل والمفاسد ومصدر لجميع الآلام والمعاناة. والأنبياء عليهم السلام يأتون في مثل هذه الظروف وشعارهم التغيير؛ هم يريدون أن يحوّلوا المجتمع الطاغوتي إلى مجتمع توحيدي.

رسالة الأنبياء عليهم السلام هي صناعة المجتمع الإسلامي، وهذه الرسالة تشمل جميع قضايا المجتمع مثل الحكومة والاقتصاد والثقافة والعلاقات الدولية. ولذلك، ساحة القائد في كتاب «مروع الفكر الإسلامي في القرآن » كان يؤكد دائماً على أنّ هيئة المجتمع الطاغوتي وشاكلته تتباين بل تتعارض مع هيئة وتركيبة وشاكلة المجتمع التوحيدي.

هذا الفرق بين هذين المجتمعين مسألة مهمة جداً، وهذا الاختلاف اختلاف بنيوي وأساسي يجب الالتفات

إليه، وليس مسألة شكلية وظاهرية وبسيطة. هذا الفرق سيتبيّن لنا أكثر عندما ندرس وبدقّة وضع المجتمع في زمن الجاهلية ونقارنه بوضع المجتمع بعد تأسيس الحكومة الإسلامية بيد الرسول الأعظم صلّى ا عليه وآله وسلّم في صدر الإسلام، وأيضاً عندما ندرس الفرق بين الوضع في إيران قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعده.

إذاً رغم أنّنا سندرس في هذه الجلسة بيئة انطلاق الثورة الإسلامية في إيران كعيّنة بارزة من الثورات الدينية الناجحة إلا أنّ الكلام هو نفسه في جميع الثورات الإلهية في الماضي وفي المستقبل، ويمكن تكرار نفس التجربة في أيّ بيئة اجتماعية مشابهة، لأنّ هذه المسألة من السنن الإلهية والتاريخية الثابتة والجارية في كل زمان ومكان.

حسناً، لدراسة الوضع في مرحلة ما قبل انطلاق الثورة الإسلامية في إيران ولفهم جذور الثورة وبيئة نشأتها ننظر إلى الموضوع من جهتين؛ أوّلاً ننظر إلى النظام الشاهنشاهي السابق وخصوصياته وتصرّفاته التي أدّت إلى نهوض الشعب في وجهه، وثانياً ننظر إلى الشعب ومواصفاته ومؤهّلاته الأساسية التي مهّدت الأرضية للثورة.

بالنظر إلى النظام الطاغوتيتي، هناك خمس خصوصيات أساسية وبارزة كانت توجد في ذلك النظام وقد بيّنها ساحة الإمام الخامنئي: الخصوصية الأولى حسب تعبير القائد عبارة عن «الدكتاتورية السوداء » والقمع الشديد للناس بأقسى الأساليب. كانت إحدى خصوصيات ذلك النظام الخبيث الشدة والقسوة في التعامل مع كل من كان له أدنى اعتراض عليه حتى لو كانت الانتقادات بسيطة جدّاً. كانوا يحكمون بقوة الاستبداد والسجون والتعذيب والضغط النفسي والجسدي على الناس. ولا تزال آثار ووثائق تلك السجون وتلك الأساليب القمعية التي اعتمدوها موجودةً، وقد أصبحت بعض تلك السجون متحفاً لاستعراض التاريخ، وعندما يزورها الشباب الذين لم يعيشوا تلك الفترة ربّما لا يصدّقون حجم الظلم والتعذيب والقسوة التي كان يمارسها النظام الطاغوتي آنذاك.

الخصوصية الثانية هي «التبعية الذليلة » التي كانت لهم تجاه القوى الخارجية. أصلاً لقد وصل رضا خان إلى الحكم بأمر من البريطاني ن، وأزيل عن الحكم بأمر من البريطانيين، وبعد ذلك جاء البريطانيون بمحمد رضا بهلوي إلى الحكم. ثمّ دخل الأمريكيون ساحة السياسة الإيرانية وسيطروا على كلّ شيء فيها. كانت السياسات في إيران سياسات أمريكا، وكان ما يحصل في إيران هو ما كانت تقتضيه

مصالح أمريكا وما يراه الأمريكيون لازماً ومناسباً، سواء على صعيد السلوك الداخلي، أو السلوك الإقليمي، أو السلوك الدولي. يعني ذلك النظام المستبد الظالم الذي كان يتعامل مع شعبه بمنتهى القسوة كان ذليلاً وخاضعاً وتابعاً وخانعاً ومطيعاً ومذعوراً أمام أمريكا. هكذا كان الوضع!

الخصوصية الثالثة لنظام الطاغوت هي «الفساد المستشري ».

كان نظاماً فاسداً ومفسداً، يعني كان يروّج الفساد. في ذلك النظام كانت تحصل وتحدث أنواع المفاسد، من المفاسد الجنسية إلى غيرها من الفساد المالي والإدمان على المخدرات وترويج المخدرات، وكلّها كانت تحدث بواسطة عناصر وشخصيات فاعلة وأساسية في نظام الحكم. كان جميع رجال البَلاط تقريباً والمحيطون بهم واقع ن في المفاسد، وقصص هذه الأمور مخجلة. والكثير من أبناء الشعب في ذلك الحين كانوا يعلمون هذه القصص لكنّهم لم يكونوا يتجرأون على التفوّه بها. لقد قام نفس محمّد رضا بهلوي والمحيطون به بارتكاب أضخم عمليات الفساد المالي وأسوأ أنواع التطاول والنهب للمصادر الماليّة للشعب. لقد جمعوا الثروات لأنفسهم، وكان الثمن إفقار الشعب.

الخصوصية الرابعة للنظام الطاغوتي هي «عدم الاكراث للناس ».

كان النظام منقطعاً تماماً عن الشعب، ولم يكن لديه أي اهتمام بالناس وبهموم الناس وبمشاكل الناس، ولم يكن يحسب للناس أي حساب أصلاً. الشعب لم يكن يعلم أصلاً من هو على رأس الأمور، ولم يكن للناس أيّ دور في انتخاب المسؤولين وفي تحديد السياسات والاتجاهات العامة، بل إنّ الصلة بين جماهير الشعب ونظام الحكم كانت مقطوعة تماماً. أولويات النظام واهتماماته وهواجسه ومخطّطاته وبرامجه كانت في مكان، وأولويات الناس وآلامهم وهواجسهم وحاجاتهم كانت في مكان مختلف كلّياً! لذلك من المعروف أنّ محمد رضا بهلوي في البداية تفاجأ عندما واجه اعتراض الشعب، ولم يكن لديه أدنى تصوّر عن سبب هذا الاعتراض. يعني أنّهم كانوا بعيدين عن الشعب وآماله وآلامه إلى هذا الحدّ.

الخصوصية الخامسة لنظام الطاغوت عبارة عن «تضخيم الغرب وإشاعة عقدة الدونية الوطنية ». من جهة، أهانوا الشعب واستهانوا بقدراته، ومن جهة أخرى ضخّموا الثقافة الغربية وروّجوا لنمط الحياة الغربي وللقيم المادية الغربية. الأعمال العلمية لم تكن تتقدم والتحرك العلمي بالمعنى الحقيقي للكلمة لم يكن موجوداً أصلاً. في وسائل الإعلام كانوا قد عوّدوا الناس على المنتج الغربي، بدل أن يأخذوا البلاد نحو إحياء الإنتاج الداخلي وإنعاش المصادر الحقيقية للشعب. كانوا قد عوّدوا الشعب على الواردات والاستيراد بأموال النفط، وغيرّوا ذوق الناس، وقضوا على الزراعة في البلاد، ودمّروا

الصناعات الوطنية، وجعلوا البلاد كلها تابعة للخارج ولأعداء الشعب.

هذه كانت الخصوصيّات الخمسة الأساسية لدى النظام الطاغوتي، وهي على الأغلب خصوصيّات مشركة بين جميع الأنظمة غير الإلهية في العالم، سواء الأنظمة الدكتاتورية أو الأنظمة الليبرالية التي هي طاغوتية أكر من الدكتاتوريات. في المقابل، يجب أن ندرس خصوصيّات الشعب أيضاً لكي نفهم كيف استطاع الإمام الخميني أن يحرّك الجماهير للنزول إلى الساحة ولقبول المسؤولية وتحمّل الصعوبات وتقديم التضحيات.

في هذا المجال يؤكّد ساحة الإمام الخامنئي على خصوصية أساسية لدى الشعب والتي شكلت عنصراً مهماً في تمهيد الأرضية المناسبة للثورة وهي «إيمان الشعب». ثمّ يذكر ساحة القائد وصفين مهمّين لإيمان الشعب وها «عمق الإيمان» و «انتشار الإيمان». وجود هذا الإيمان العميق والمنتشر لدى الشعب كان عاملاً مؤثراً في انطلاق الثورة.

يذكر ساحة الإمام الخامنئي في مذكراته قصة ويقول: «جاء إلى إيران أحد القادة الإفريقيين المعروفين. وقد شرحت له كيف انتصرت الثورة الإسلامية، قلت له لم يكن في الأمر انقلاب عسكري، ولا ضباط شباب جاءوا وأسقطوا الطاغوت كما هو دارج في العالم، ولم يكن للنخب والأحزاب دور مهم، إنما كان الدور لكتل الشعب الواسعة، وليس هذا بالسلاح. لم يكن في أيدى الشعب الإيراني سلاح، وإنما نزلوا إلى الساحة بأيد خالية وبأجسامهم. وضعوا قلوبهم ودماءهم على الأكف وسارعوا إلى الساحة. وهذا غير ممكن من دون إيمان عميق ومنتشر بين الناس. فنزلوا إلى وسط الساحة وانتصر الدم على السيف، وهذه هى الحالة الطبيعية في كل مكان. أين ما كان الشعب مستعداً للتضحية فا من قوة تستطيع أن تقاومه. حين شرحت انتصار الثورة الإسلامية لذلك القائد الإفريقي، كان الأمر مثيراً ولافتاً بالنسبة له جداً، وجديداً عليه. ذهب وشاهدتُ بعد فترة وجيزة أنه قد انطلقت في بلاده مثلُ هذه الحركة الشعبية، وشعرتُ أن ذلك كان مستلهماً من سلوك إمامنا الخمينى الجليل وسلوك شعب إيران، وقد انتصر هناك. لقد انتصر على إحدى القوى المتعسفة الخبيثة الكبرى المتسلطة على العالم، واستطاع إنقاذ ب اده. »

إذاً في مثل هذه البيئة الاجتماعية قام الإمام الخميني ونهض وتحرّك وحرّك الشعب وانطلقت الثورة. طبعاً سوف نتحدّث في حلقة مستقلّة حول أصحاب الدور الرئيسي في الثورة الإسلامية وسنتحدّث بالتفصيل حول الإمام الخميني رضوان ا تعالى عليه وشخصيته وخصوصياته أكثر وأكثر إن شاء ا. والحمد ربّ العالمين، والسلام عليكم ورحمة ا وبركاته.